

# براعة الاستهلال فيما افتتح من سور القرآن بالأمر

تأليف

**أ.د/ السيد عبدالرؤوف إبراهيم**

أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد بكلية أصول الدين والدعوة

بالزقازيق

من ١٢٨٧ إلى ١٣٣٠



## ملخص البحث

براعة الاستهلال فيما افتتح من سور القرآن بالأمر

تأليف

الأستاذ الدكتور/ السيد عبدالرؤوف إبراهيم

أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد بكلية أصول الدين والدعوة بالزقازيق

إن القرآن الكريم هو كلام الله تعالى ومعجزته الخالدة الباقية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، تحدى الله به الثقلين فعجزوا عن مماثلته.

ومن أبرز وجوه الإعجاز في القرآن الكريم روعة أسلوبه ونظمه، وبراعة الاستهلال في فواتح سوره مظهر من مظاهر إعجازه، حيث جاءت فواتح سور القرآن الكريم في أعلى درجات البلاغة من الجودة والإحكام لما تنطوي عليه من روعة الأسلوب وبراعة الاستهلال وجمع المعاني الكثيرة في الألفاظ القليلة.

وبتبعي لما كتبه العلماء في أسرار فواتح السور القرآنية، وبيان براعة الاستهلال فيها وجدت أنهم مُقلِّون في الكتابة في هذا الموضوع مما دفعني لعقد العزم مستعينا بالله تعالى للكتابة في هذا الموضوع، وقد وفقني الله تعالى قبل ذلك وكتبت موضوعاً في هذه الفواتح تحت عنوان (( براعة الاستهلال فيما افتتح من سور القرآن بالنداء)) وها أنا ذا اليوم بتوفيق من الله أكتب بحثاً آخر تحت عنوان (( براعة الاستهلال فيما افتتح من سور القرآن بالأمر)) مبيناً فيه أن السور القرآنية المفتتحة بالأمر ست سور، جعلت كل سورة فيها مطلباً، وبيّنت براعة الاستهلال فيها مع توثيق ذلك بأقوال المفسرين والعزو إلى مصادرها الأصلية، وعزو الآيات إلى سورها، وتخريج الأحاديث المستدل بها من مظانها الأصيلة.

---



---

Search summary

Tact inception with opened Suras.

Scriptwriter

Dr/elsaeed abd elrauof ebraheem

Koran interpretation Professor Assistant at Faculty of Theology  
and calling Zagazig

The Qur'an is the word of Allah almighty and eternal miracle to inherit the Earth, Allah, Allah challenged the thaqalayn, failed to match his savagery.

The most prominent faces of miracles in the Holy Quran organized style and splendor, and communions prowess in some bruschetta Sura manifestation of miraculous nature, where the Quran openings came in highest eloquence of quality and conditions of the magnificence of style and versatility of inception and many meanings in collection terms .

And follow what written by scientists in the secrets of Koranic fence openings, and indicate where they found initialization prowess decrease in Write in the subject which prompted me to resolved using Allah almighty to write in the subject, and may Allah almighty reads it before that and I wrote a topic in this pastels titled ((brilliantly inception with opened Suras appeal)) and here I am today with a reconciliation of Allah type another search under the title ((brilliantly inception with opened Suras)) indicating that the Koranic fence opened it six sur, made every Sura which requirement, brilliantly demonstrated with document initialization statements mufasssireen, attribution, to their original sources, attributed to its verses, And externalize its habitats of adduced chats.

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### مقدمة

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴾<sup>(١)</sup>، والصلاة والسلام على أشرف الخلق سيدنا محمد ﷺ الذي بعثه الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله.

### وبعد؛؛؛

إن القرآن الكريم هو كلام الله ﷻ ومعجزته الخالدة الباقية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، تحدى الله به الثقلين فعجزوا عن مماثلته، قال تعالى: ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾<sup>(٢)</sup>. ومن أبرز وجوه الإعجاز في القرآن الكريم روعة أسلوبه ونظمه، وبراعة الاستهلال في فواتح سورته مظهر من مظاهر إعجازه، حيث جاءت فواتح سور القرآن الكريم في أعلى درجات البلاغة من الجودة والإحكام لما تنطوي عليه من روعة الأسلوب وبراعة الاستهلال وجمع المعاني الكثيرة في الألفاظ القليلة.

وبتبعي لما كتبه العلماء في أسرار فواتح السور القرآنية، وبيان براعة الاستهلال فيها وجدت أنهم مُقَلِّونَ في الكتابة في هذا الموضوع مما دفعني لعقد العزم مستعينا بالله ﷻ للكتابة في هذا الموضوع، وقد وفقني الله ﷻ قبل ذلك وكتبت موضوعا في هذه الفواتح تحت عنوان (( براعة الاستهلال فيما افتتح من سور القرآن بالنداء )) وها أنا ذا اليوم بتوفيق من الله أكتب بحثا آخر تحت عنوان (( براعة الاستهلال فيما افتتح من سور القرآن بالأمر )) مبينا فيه أن السور القرآنية المفتتحة بالأمر ست سور، جعلت كل سورة فيها مطلبا، وبَيَّنَّتْ براعة الاستهلال فيها مع توثيق ذلك بأقوال المفسرين والعزو إلى مصادرها الأصلية، وعزو الآيات إلى سورها، وتخريج الأحاديث المستدل بها من مظاهرها الأصلية.

وقد جاء البحث مشتملا على مقدمة، وتمهيد، وسبعة مطالب، وخاتمة، وفهارس.

(١) سورة الكهف، الآية: ١.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨٨.

تحدثت في المقدمة عن موضوع البحث وسبب اختياري له ومنهجي فيه، وتحدثت في التمهيد عن تعريف براعة الاستهلال لغة واصطلاحاً ؛ وأهمية ذلك عند علماء البلاغة والأدب في دراسة فواتح سور القرآن الكريم ؛ وكذلك تعريف الأمر لغة واصطلاحاً.   
المطلب الأول: دلالة فعل الأمر.

المطلب الثاني: براعة الاستهلال في فاتحة سورة الجن.

المطلب الثالث: براعة الاستهلال في فاتحة سورة العلق.

المطلب الرابع: براعة الاستهلال في فاتحة سورة الكافرون.

المطلب الخامس: براعة الاستهلال في فاتحة سورة الإخلاص.

المطلب السادس: براعة الاستهلال في فاتحة سورة الفلق.

المطلب السابع: براعة الاستهلال في فاتحة سورة الناس.

ثم الخاتمة والفهارس.

## تمهيد

التعريف بمصطلحات البحث.

أولاً: تعريف براعة الاستهلال في اللغة:

براعة الاستهلال مصطلح يتكون من كلمتين، ولكي نقف على المدلول اللغوي لهذا المصطلح فإننا نحدد المدلول اللغوي لكل كلمة على حدة.

١- معنى البراعة في اللغة:

يقال بَرَعَ بروعاً وبَرُعَ براعة وبرَع برعاً فاق أصحابه في العلم وغيره كما في الصحاح. والبارع: الفائق أصحابه سؤدداً وعلماً وفضيلة.

وقال ابن الأعرابي: بَرَعَهُ وقرَعَهُ إذا علاه وفاقه، والشيء البارع: المشرف العالي<sup>(١)</sup>.

٢- معنى الاستهلال في اللغة:

الألف والسين والتاء للطلب أي: طلب الهلال، والهلال بالكسر غرة القمر وهي أول ليلة أو ليلتين.

واستهل المطر: إذا ارتفع صوت وقعه.

واستهل الصبي: رفع صوته بالبكاء وصاح عند الولادة.

وأهلاً الحرم بالحج والعمرة: إذا لَبَّى ورفع صوته بالتلبية.

وأصل الإهلال: رفع الصوت، وكل رافع صوته فهو مهل، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَهَلَّ

بِهِ لِعَنِّي اللَّهُ﴾<sup>(٢)</sup> أي نودي عليه بغير اسم الله تعالى<sup>(٣)</sup>، فكان مقدمة الكلام مؤذنة بالإخبار

عمماً يأتي بعد ذلك فهي استهلال.

فبراعة الاستهلال بهذا التركيب الإضافي تعني في اللغة تميزاً وتفرداً في مفتتح الكلام، منشؤه

أن المتكلم يفهم غرضه عند ابتداء رفع الصوت، ومطلع كلامه مؤذن بما يتضمنه الكلام بعد

(١) تاج العروس للزبيدي ٥/ ٢٧٣، ومعجم متن اللغة للشيخ أحمد رضا ١/ ٢٧٥ مكتبة الحياة.

(٢) سورة البقرة، من الآية: ١٧٣.

(٣) تاج العروس، ٨/ ١٧٠: ١٧٢، لسان العرب لابن منظور ٦/ ٨٢١: ٨٢٢ دار الجليل - بيروت.

ذلك، فكأن طلوع أهلة المعاني واضحة في مطلع كلامه، والسور القرآنية تلوح أهلتها أي بدايات معانيها في مطالعها، وهذا يتطابق مع المدلول الاصطلاحي الذي حدده البلاغيون لهذا العلم.

ثانياً: تعريف براعة الاستهلال في الاصطلاح:

يقول ابن الأثير " أما براعة الاستهلال فهي كل كلام دلّ أوله على المعنى المقصود " (١) مما يعني أن هناك تآلفاً وانسجاماً بين مطلع الكلام والغرض الذي سيق لأجله. ويقول التبريزي " أن يبدأ بما يدل على غرضه " (٢).

ويقول السيوطي " ومن الابتداء الحسن نوع أخص منه يسمى براعة الاستهلال وهو أن يشتمل أول الكلام على ما يناسب الحال المتكلم فيه ويشير إلى ما سيق الكلام لأجله والعلم الأسنى في ذلك سورة الفاتحة التي هي مطلع القرآن فإنها مشتملة على جميع مقاصده وهذا هو الغاية في براعة الاستهلال مع ما اشتملت عليه من الألفاظ الحسنة والمقاطع المستحسنة وأنواع البلاغة " (٣).

### ثالثاً: أهمية براعة الاستهلال عند أهل البلاغة والأدب:

لقد جاءت مطالع السور القرآنية بالغة الروعة في النظم والأسلوب. وبراعة الاستهلال وجه من وجوه البلاغة والإعجاز له أهميته عند أهل البلاغة والأدب، وسمي هذا النوع بهذا الاسم " لأن المتكلم يُفهم غرضه من كلامه عند ابتداء رفع صوته به " (٤)، قال الحموي " وفي هذه التسمية تنبيه على تحسين المطالع وإن أحل الناظم بهذه الشروط لم يأت بشيء من حسن الابتداء " (٥).

(١)

(٢) الوافي في العروض والقوافي للخطيب التبريزي، ص ٢٨٤، تحقيق د/ فخرالدين قيادة، عمر مجي.

(٣) الإنفاق في علوم القرآن (٣/٣٤٣).

(٤) أنواع الربيع في أنواع البديع، لعلي المدني (٥٦/١) تحقيق شاکر هاني.

(٥) خزائن الأدب وغاية الإرب لابن حجة الحموي (١٩/١) تحقيق عصام شقويط.



ونقل الجاحظ عن ابن المقفع قوله " ليكن صدر كلامك دليل حاجتك، كما أن خير أبيات الشعر البيت الذي إذا سمعت صدره عرفت قافيته" <sup>(١)</sup>.

وهي "ضرب من ضروب الصنعة التي يقدمها أمراء البيان، ونقاد الشعر، وجهابذة الألفاظ، فينبغي للشاعر إذا ابتدأ قصيدته مدحا أو ذما أو فخرا أو وصفا أو غير ذلك من أفانين الشعر ابتدأها بما يدل على غرضه فيها، كذلك الخطيب إذا ارتجل خطبته، أو البليغ إذا افتتح رسالة فمن سبيله أن يكون ابتداء كلامه دالا على انتهائه، وأوله ملخصا لآخره" <sup>(٢)</sup>. يقول الخطيب القزويني " وأحسن الابتداءات ما ناسب المقصود ويسمى براعة الاستهلال" <sup>(٣)</sup>.

ويقول ابن أبي الإصبع " وإذا نظرت إلى فواتح السور القرآنية جملها ومفرداتها رأيت من البلاغة والتفنن في الفصاحة ما لا تقدر العبارة على حصر معناه" <sup>(٤)</sup>

إن الأنواع والأساليب الكلامية التي جاءت عليها فواتح سور القرآن الكريم آية في الروعة والإعجاز وحسن المطلع، وبراعة الاستهلال، وجمع المعاني الكثيرة في الألفاظ القليلة. والملاحظ في أساليب فواتح سور القرآن الكريم عامة أنها كانت فنونا وأنواعا في المعاني والألفاظ وطرق الأداء " وإذا نظرت إلى فواتح السور القرآنية جملها ومفرداتها رأيت من البلاغة والتفنن في الفصاحة ما لا تقدر العبارة على حصر معناه" <sup>(٥)</sup>

والأمر الجامع لذلك كله أن علماء البلاغة يقسمون الكلام عامة إلى خبر وإنشاء، " فالخبر ما يصح أن يقال لقائله إنه صادق فيه أو كاذب، فإن كان الكلام مطابقا للواقع كان قائله صادقا، وإن كان غير مطابق للواقع كان قائله كاذبا، والإنشاء ما لا يصح أن يقال لقائله إنه صادق فيه أو كاذب" <sup>(٦)</sup> بل يفيد حدوث معنى من المعاني يقوم بنفس المتكلم ويعبر

(١) البيان والتبيين للجاحظ (١١٦/١) تحقيق عبدالسلام هارون.

(٢) قانون البلاغة للبغدادي ص ٤٥٠.

(٣) الإيضاح للخطيب القزويني، ص ٤٣١.

(٤) تحرير النخب لابن أبي الإصبع ص ١٧٢.

(٥) تحرير النخب في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن لابن أبي الإصبع، ص ١٧٢.

(٦) البلاغة الواضحة لـ علي الجارم، ومصطفى أمين، ص ١٨٩.

عنه كأن يكون داعياً، أو آمراً، أو ناهياً، أو مستفهماً، أو مترجياً، أو مشروطاً، أو ما شاكل ذلك مما لا يقال في قائله إنه صادق فيه أو كاذب، لأنه لم يخبر عن شيء ولكن يعبر عن معان قامت في نفسه.

ولما كان القرآن الكريم هو ديوان العربية الأكبر، وقاموسها المحيط، ووثيقة الخلود لها في ألفاظها وأساليبها، والنموذج الحي لأعلى صورها وأبجج كمالاتها، جاءت فواتح سوره وهي تشتمل على النوعين معا أسلوب الخبر، وأسلوب الإنشاء.

يقول الإمام السيوطي -رحمه الله تعالى-: "ومن الابتداء الحسن نوع أخص منه يسمى براعة الاستهلال وهو أن يشتمل أول الكلام على ما يناسب الحال المتكلم فيه ويشير إلى ما سيق الكلام لأجله والعلم الأسنى في ذلك سورة الفاتحة التي هي مطلع القرآن فإنها مشتملة على جميع مقاصده وهذا هو الغاية في براعة الاستهلال مع ما اشتملت عليه من الألفاظ الحسنة والمقاطع المستحسنة وأنواع البلاغة"<sup>(١)</sup>.

ثم ساق رحمه الله أنواع الفواتح التي افتتحت بها سور القرآن الكريم فقال "اعلم أن الله افتتح سور القرآن بعشرة أنواع من الكلام لا يخرج شيء من السور عنها:  
الأول: الثناء عليه تعالى والثناء قسمان: إثبات لصفات المدح ونفي وتزويه من صفات النقص فالأول التحميد في خمس سور وتبارك في سورتين والثاني التسييح في سبع سور.  
قال الكرمانى في متشابه القرآن: التسييح كلمة استأثر الله بها فبدأ بالمصدر في بني إسرائيل لأنه الأصل ثم بالماضي في الحديد والحشر لأنه أسبق الزمانين ثم بالمضارع في الجمعة والتغابن ثم بالأمر في الأعلى استيعاباً لهذه الكلمة من جميع جهاتها.

الثاني: حروف التهجي في تسع وعشرين سورة.

الثالث: النداء في عشر سور.

الرابع: الجمل الخبرية في ثلاث وعشرين سورة.

الخامس: القسم في خمس عشرة سورة.

السادس: الشرط في سبع سور.

السابع: الأمر في ست سور.

(١) الإنفاق في علوم القرآن (٣/٣٤٣).

الثامن: الاستفهام في ست سور.

التاسع: الدعاء في ثلاث سور.

العاشر: التعليل في لإيلاف قریش.

وهكذا جمع أبو شامة قال: وما ذكرناه في الدعاء يجوز أن يذكر مع الخبر وكذا الثناء كله خبر إلا "سبح" فإنه في قسم الأمر وسبحان يحتمل الأمر الدعاء والخبر ثم نظم ذلك في بيتين فقال:

أثنى على نفسه سبحانه بثبو \*\*\* ت الحمد والسلب لما استفتح السورا

والأمر شرط النداء والتعليل والقسم الد \*\*\* عا حروف التهجي استفهم الخبرا  
وقال أهل البيان: من البلاغة حسن الابتداء وهو أن يتأق في أول الكلام لأنه أول ما يقرع السمع فإن كان محررا أقبل السامع على الكلام ووعاه وإلا أعرض عنه ولو كان الباقي في نهاية الحسن فينبغي أن يؤتى فيه بأعذب اللفظ وأجزله وأرقه وأسلسه وأحسنه نظما وسبكا وأصححه معنى وأوضحه وأخلاه من التعقيد والتقديم والتأخير الملبس أو الذي لا يناسب.  
قالوا: وقد أتت جميع فواتح السور على أحسن الوجوه وأبلغها وأكملها كالتحميدات وحروف الهجاء والنداء وغير ذلك<sup>(١)</sup>.

ذكرنا سابقا أن الجمل الخبرية وأسلوب الخبر في فواتح السور كثيرة، والجمل الإنشائية وأسلوب الإنشاء في فواتح السور كذلك كثيرة، ولما كانت صيغة الأمر وأسلوبه من الصيغ والأساليب الإنشائية فقد جاء في فواتح ست سور كريمة هي:

١- سورة الجن، قال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا

﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۗ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ ﴿١﴾.

٢- سورة العلق، قال تعالى: ﴿اقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِّنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ

الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴿٣﴾.

(١) الإنفان في علوم القرآن (٣/٣٦١: ٣٦٣) بنصرف.

(٢) سورة الجن، الآيات: ١، ٢.

(٣) سورة العلق، الآيات ١: ٥.

- ٣- سورة الكافرون، قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَّابِعُونَ الْكَافِرُونَ﴾ (١) .  
 ٤- سورة الإخلاص، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ (٢) .  
 ٥- سورة الفلق، قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ (٣) .  
 ٦- سورة الناس، قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝ مَلِكِ النَّاسِ﴾ (٤) .  
 رابعا: تعريف الأمر:

١- تعريف الأمر لغة: ((نقيض النهي ، أمره به ، وأمره ؛ وأمره إياه ... ، يأمره أمراً وإماراً فأتمر أي قبل أمره)) (٥) .

٢- تعريف الأمر اصطلاحاً: هو طلب لايقاع الفعل خلاف للنهي الذي هو طلب لتترك إيقاع الفعل (٦) . وقيل : إنه طلب فعل غير كفٍ على جهة الاستعلاء ، واحتترز-(بغير كفٍ) عن النهي : بقوله على جهة الاستعلاء ، أي طلب العلو سواء أذلك حقيقةً كان أم لا - وعن الدعاء والإلتماس (٧) .

(١) سورة الكافرون، الآية: ١.

(٢) سورة الإخلاص، الآيات: ١-٢.

(٣) سورة الفلق، الآيات: ١-٢.

(٤) سورة الناس، الآية: ١.

(٥) لسان العرب ( ٢٠٣ / ١ ) .

(٦) ينظر المرجل ص ٢١٥ .

(٧) ينظر مفتاح العلوم، ص ١٥٢ .

## المطلب الأول

### دلالة فعل الأمر ( قل )

الجدير بالذكر في هذه السور الست أن خمساً منها بدأت بفعل الأمر ( قل ) وواحدة بدأت بالفعل ( اقرأ ) والمشهور في تلك السور أنها مكية، والملاحظ بصفة عامة في مثل هذا المقام أن الذي يُؤمر بشيء إنما يُطلب منه تنفيذ هذا الأمر بصرف النظر عن صيغة الأمر نفسها، وطرحها من الموضوع رأساً، وإسقاطها من الحساب عند تنفيذ المأمور به، فلما أمر الله رسوله محمداً ﷺ بأن يبلغ المأمور به وهو في سورة الجن ﴿أَوْحَىٰ إِلَيْكَ أَنَّهُ سَتَمَعَ نَفَرَيْنَ الْغَيْبِ﴾، وفي سورة الكافرون ﴿يَتَأْتِيهَا الْكُفْرُوتُ﴾ وفي سورة الإخلاص ﴿هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ وفي سورة الفلق ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ ﴿١﴾ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وفي سورة الناس ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ كأن الأصل أن يكتفي الرسول ﷺ بأن يبلغ ناطقاً بالكلام المأمور به هكذا كما سبق من غير أن يكون معه فعل الأمر ( قل ) لكننا وجدنا فعل الأمر قل جاء مذكوراً محافظاً عليه مع المأمور به، وذلك لأن المقام هنا ليس مقام تكليف لرسول الله ﷺ بأن يبلغ المأمور به فحسب، ولكن المقام مقام وحي نازل من السماء بقرآن يتلى على رسول الله ﷺ بحيث يبلغه بأمانة التبليغ التي تقتضي قيام النبي ﷺ بتبليغ ما أنزل إليه من ربه كما تلقاه من جبريل عليه السلام دون زيادة فيه أو نقصان، بمعنى أن يبلغ ما نطق به جبريل عليه السلام أمراً ومأموراً به وما على الرسول ﷺ إلا البلاغ، وتلك دلالة فعل الأمر هنا.

وهناك دلالة أخرى وهو أن ما يأتي بعد فعل الأمر من الأهمية بمكان الأمر الذي يجب أن تشحذ إليه الهمم من المتحمل وهو جبريل عليه السلام والمتلقى عنه وهو النبي ﷺ، والمبلغ إليه وهو الناس كافة.

وتم دلالة أخرى وهي أن السور لما كانت مكية كان البدء فيها بفعل الأمر ( قل ) يناسب تلك المرحلة الدعوية في مكة حيث كان الجهاد فيها بالكلمة، لأن المرحلة تقتضي إقامة الحجة

بالقول والبيان والإيضاح باللسان لقوم طال عليهم الأمد بين سيدنا عيسى عليه السلام والنبي محمد ﷺ فلم يعهدوا هذا الأمر من قبل.

وهكذا جاءت دلالات فعل الأمر في هذه الفواتح لتلك السور الكريمة كأن الرسول الكريم ﷺ يقول هكذا أوحى الله إلى هذا القرآن، هكذا نزل على فليس لي أن أغير فيه ﴿أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾<sup>(١)</sup>، وليس لأحد بعد النبي ﷺ أن يتصرف في حرف من حروف القرآن الكريم أو وجه من وجوهه إلا بتوقيف وسند صحيح عنه ﷺ.

وهناك أمر آخر لا بد من الإشارة إليه والتنبيه عليه وهو: هل الأمر من الله ﷻ لرسوله ﷺ خاص به أم يشمله هو وأفراد أمته بحيث يكون كل واحد مأمورا بما أمر به الرسول ﷺ؟ والجواب عن هذا أن يقال: إن ذلك متوقف على المقام والسياق والشئء المأمور به واستظهار القرائن التي تبين ما إذا كان هذا الأمر خاصا بالرسول ﷺ أو يشمله هو وأفراد أمته إما بطريقة القياس، وإما بطريق أن الأمر للرسول ﷺ أمر له ولأمته، ففي سورة الجن لا يمكن أن يكون الأمر فيها عاما له ﷺ ولأمته ضرورة أنه لا وحي لأحد من أفراد الأمة غيره ﷺ، بينما لا يكون هناك مانع من توجيه الأمر لكل فرد في مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾<sup>(٢)</sup>، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾<sup>(٣)</sup>، وفي كثير من سور القرآن وآياته في مواطن أخرى نجد الخطاب والأمر من الله لرسوله ﷺ لا يصلح إلا له ﷺ ولا مشاركة لأفراد الأمة فيه مثل قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الْمَزْمَلُ﴾<sup>(٤)</sup> ﴿قُرْآنًا لِي لَا قَلِيلًا﴾<sup>(٥)</sup>، ﴿يَأْتِيهَا الْمَدْيَنُ﴾<sup>(٤)</sup> ﴿قُرْآنًا نَذِيرًا﴾<sup>(٥)</sup>، بينما نجد خطابا آخر أو أمرا من الله لرسوله ﷺ يصلح أن يكون خطابا وأمرا لأمته في حياته وبعد مماته، ولا يمنع من ذلك أن تكون بعض

(١) سورة يونس، من الآية: ١٥.

(٢) سورة الإخلاص، الآيات: ١-٢.

(٣) سورة الفلق، الآيات: ١-٢.

(٤) سورة المزمل، الآيات: ١-٢.

(٥) سورة المدثر، الآيات ١-٢.

هذه الأمور عند أسباب نزولها متعلقة بشأن الرسول ﷺ لكن العبرة كما يقول علماء الأصول بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

### المطلب الثاني: سورة الجن

إن سورة الجن هي السورة الثانية والسبعون في ترتيب المصحف الشريف، وافتتاحها بقوله

تعالى: ﴿قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾﴾<sup>(١)</sup>.

### سبب نزولها:

أخرج الإمامان البخاري ومسلم في صحيحهما بسندهما عن عبد الله بن عباس ؓ قال: انطلق النبي صلى الله عليه وسلم في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم، فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب، قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاريبها، فانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فأنصرف أولئك الذين توجهوا نحو نهامة إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو ينخله، عامدين إلى سوق عكاظ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له، فقالوا: هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهناك حين رجعوا إلى قومهم، وقالوا: يا قومنا: {إنا سمعنا قرآنا عجايبا يهدي إلى الرشيد فآمننا به ولكن نشارك بربنا أحدا}، فأنزل الله على نبيه صلى الله عليه وسلم: {قل أوحى إليّ} وإتيا أوحى إليه قول الجن<sup>(٢)</sup>.

قال ابن عطية: هي مكية بإجماع المفسرين<sup>(٣)</sup>.

(١) سورة الجن، الآية: ١.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب الجهر بقراءة صلاة الفجر (١/١٥٤)، وصحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على

الجن (١/٣٣١).

(٣) انحر الوجيز لابن عطية (٥/٣٧٨).

## مناسبة السورة لما قبلها:

لقد ذكر الإمام أبو حيان - رحمه الله - مناسبة هذه السورة لما قبلها مشيراً إلى براعة الاستهلال فيها بقوله: ووجه مناسبتها لما قبلها: أَنَّهُ لَمَّا حَكَى تَمَادِي قَوْمِ نُوحٍ فِي الْكُفْرِ وَعُكُوفِهِمْ عَلَى عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ، وَكَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَوَّلَ رَسُولٍ إِلَى الْأَرْضِ كَمَا أَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آخِرُ رَسُولٍ إِلَى الْأَرْضِ، وَالْعَرَبُ الَّذِي هُوَ مِنْهُمْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَانُوا عَبَادًا أَصْنَامٍ كَقَوْمِ نُوحٍ، حَتَّى أَنَّهُمْ عَبَدُوا أَصْنَامًا مِثْلَ أَصْنَامِ أَوْلَيْكَ فِي الْأَسْمَاءِ، وَكَانَ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْقُرْآنِ هَادِيًا إِلَى الرُّشْدِ، وَقَدْ سَمِعْتَهُ الْعَرَبُ، وَتَوَقَّفَ عَنِ الْإِيمَانِ بِهِ أَكْثَرُهُمْ، أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى سُورَةَ الْجِنِّ إِثْرَ سُورَةِ نُوحٍ، تَبْكِيتًا لِقُرَيْشٍ وَالْعَرَبِ فِي كُوفِهِمْ تَبَاطُؤًا عَنِ الْإِيمَانِ، إِذْ كَانَتِ الْجِنُّ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْبَلَ لِلْإِيمَانِ، هَذَا وَهُمْ مِنْ غَيْرِ جِنْسِ الرَّسُولِ ﷺ وَمَعَ ذَلِكَ فَبِنَفْسٍ مَا سَمِعُوا الْقُرْآنَ اسْتَعْظَمُوهُ وَآمَنُوا بِهِ لِلْوَقْتِ، وَعَرَفُوا أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ نَمَطِ كَلَامِ النَّاسِ، بِخِلَافِ الْعَرَبِ فَإِنَّهُ نَزَلَ بِلِسَانِهِمْ وَعَرَفُوا كَوْنَهُ مُعْجِزًا، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ مُكَذِّبُونَ لَهُ وَلَمَنْ جَاءَ بِهِ حَسَدًا وَبَغْيًا أَنْ يُنَزَلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ<sup>(١)</sup>.

إن المتدبر لآيات سورة الجن يتبين له أن المقصد الأسمى لهذه السورة الكريمة هو معالجة أصول العقيدة الإسلامية؛ فتحدثت عن الوحدانية وذلك بنفي الشريك والولد عنه - سبحانه وتعالى - وتزويه الله عما لا يليق به قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ (٣) الجن: ٣، كما تحدثت عن الرسالة والمرسل إليه والوحي النازل من السماء واستماع الجن للقرآن في مطلعها، قال تعالى: ﴿قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا نَسْتَجِيبُ﴾ (١) الجن: ١، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ (١٩) الجن: ١٩، كما تحدثت عن البعث والجزاء؛ قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ

(١) البحر المحيط في التفسير لأبي حيان (٢٩٢/١٠).



لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ الجن: ٧، ومحور السورة يدور حول الجن وما يتعلق بهم من أمور خاصة بدءاً من سماعهم للقرآن إلى دخولهم في الإيمان وغير ذلك من الأخبار العجيبة.

إن المتأمل في مطلع هذه السورة يجد أنها صدرت بفعل الأمر ( قل ) وهو أمر منه تعالى لرسوله ﷺ أن يبلغ أصحابه ويظهر لهم ما أوحى الله به في حادثة الجن، وأنهم مع تمردهم لما سمعوا القرآن ءامنوا به وبالرسول الذي جاء به، واستمرت السورة الكريمة في سرد أقوال الجن وحديثهم عن أنفسهم وأحوالهم ، وعن القرآن وسماعه باعتباره الوحي النازل من السماء الذي صدرت به السورة في قوله ( قل أوحى ) وعن رب العزة المتزل لهذا الوحي والأمر للنبي ﷺ بقوله ( قل ) وعن صفات هذا الرب وجلاله بطريقة موحدة غاية في الروعة والتأكيد هي طريقة قولهم، وأئه، وأئا، وإئهم، وذلك من الآية الأولى إلى الآية الرابعة عشر، ففي الآية الأولى قول الله لنبيه ﷺ : ﴿ قُلْ أَوْحَىٰ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ ﴾<sup>(١)</sup>.

" ففي افتتاح السورة بالأمر بالقول يشير إلى أن ما سيذكر بعده حدث غريب وخاصة بالنسبة للمشركين الذين هم مظنة التكذيب به، وفي الإخبار عن استماع الجن للقرآن بأنه أوحى إليه ذلك إيماء إلى أنه - صلى الله عليه وسلم - ما علم بذلك إلا بإخبار الله إياه بوقوع هذا الاستماع ، فالآية تقتضي أن الرسول لم يعلم بحضور الجن لاستماع القرآن قبل نزول هذه الآية، وأما آية الأحقاف ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ ﴾<sup>(٢)</sup> ، فتذكير بما في هذه الآية أو هي إشارة إلى قصة أخرى، وتأكيد الخبر الموحى بحرف ( أن ) للاهتمام به لغرابته، ومفعول ( استمع ) محذوف دل عليه ( إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا ) ، أي استمع القرآن نفر من الجن، وتأكيد الخبر ب ( أن ) لأنهم أخبروا به فريقاً منهم يشكون في وقوعه فأتوا في كلامهم بما يفيد تحقيق ما قالوه، ووصف القرآن بالعجب وصف بالمصدر للمبالغة في قوة المعنى، أي يعجب منه ، ومعنى ذلك أنه بديع فائق في مفاده"<sup>(٣)</sup>.

(١) سورة الجن، الآيات ١ : ٢ .

(٢) سورة الأحقاف، من الآية: ٢٩ .

(٣) التحرير والتنوير (٢٠١٩/٢٠٢١) ، بتصرف، دار سحنون- تونس.

والإيمان بالقرآن في قوله ( فآمنا به ) يقتضي الإيمان بمن جاء به وهو الرسول ﷺ ومن أنزله وهو الله ﷻ، وبهذا قد حصل لهؤلاء النفر من الجن شرف المعرفة بالله وصفاته وصدق رسوله ﷺ وصدق القرآن، وهذه الأسس الإيمانية تظهر وتتجلى براعة الاستهلال في السورة الكريمة، وروعة أسلوبها، وما يأتي بعد ذلك في ثنايا آيات السورة الكريمة له تعلق واضح بهذه الفاتحة المباركة لهذه السورة مع سريان ظاهرة التوكيد بالحرف ( أن ) في آيات السورة سريان الماء في العود الأخضر، اقرأ في ذلك تمجيد الرب وتزيهه بقوله: ﴿ وَأَنَّهُ تَعَلَّى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۗ ﴾ (١) على أنه معطوف على الضمير المجرور في قوله ( فآمنا به ) فكأنه قيل: فآمنا بالقرآن وصدقنا وآمنا، وصدقنا بأن ربنا جلّ وعلت عظمتة تزه عن أن يتخذ صاحبة أو ولدا.

يقول الشوكاني - رحمه الله -: " الجد عند أهل اللغة: العظمة والجلال " (٢).

وتأمل ما قالته الجن عن عصاتهم ومشركيهم، وكيف جاء مؤكداً بـ ( أن ) قال تعالى: ﴿ وَأَنَّهُ كَانَتْ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ۗ ﴾ (٣)، والمراد بالشطط: إثبات ما نفاه قوله - على لسان الجن - ﴿ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۗ ﴾ (٤) وقوله: ﴿ مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۗ ﴾ (٥)، وتدبر اعتذارهم عن تقليدهم لسفيهم إبليس الذي كان يعلمهم قول الكذب على الله ﷻ فينسب إليه سبحانه صاحبة والولد، وكذلك استعاذة رجال من الإنس واستجارهم برجال من الجن، فزادوهم رهقا، قال تعالى: ﴿ وَأَنَا ظَنَنَّ أَن لَنْ نَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۗ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۗ ﴾ (٦).

(١) سورة الجن، الآية: ٣.

(٢) فتح القدير للشوكاني (٣٦٨/٥).

(٣) سورة الجن، الآية: ٤.

(٤) سورة الجن، من الآية: ٢.

(٥) سورة الجن، من الآية: ٣.

(٦) سورة الجن، الآيات: ٥ - ٦.

"والتأكيد بـ (إن) لقصد تحقيق عذرهم فيما سلف من الإشراك ، وتأكيده المظنون بـ (لن) المفيدة لتأييد النفي يفيد أنهم كانوا متوغلين في حسن ظنهم بمن ضللوهم ويدل على أن الظن هنا بمعنى اليقين وهو يقين محطىء، وفي هذه الآية إشارة إلى خطر التقليد في العقيدة ، وأما لا يجوز فيها الأخذ بحسن الظن بالمقلد بفتح اللام بل يتعين النظر واتهام رأي المقلد حتى ينهض دليله"<sup>(١)</sup>.

ثم بين ﷺ إنكار الفريقين أعني الإنس والجن لقضية البعث بعد الموت، أو بعث الله تعالى

الرسول لخلقهم وما فيه من التأكيد بقوله ﴿ وَأَنْتُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴾ (٧) ﴿

(٢)

قال ابن عاشور - رحمه الله - : والتأكيد ب ( إن ) المكسورة أو المفتوحة للاهتمام بالخبر لغايتها. والبعث يحتمل بعث الرسل ويحتمل بعث الأموات للحشر، وجملة (لن يبعث الله أحداً) خبره. والتعبير بحرف (لن) المفيد لتأييد النفي للدلالة على أنهم كانوا غير مترددين في إحالة وقوع البعث<sup>(٣)</sup>.

ثم أخذت ظاهرة التوكيد بحرف ( أن ) تشيع وتتغلغل وتسري في آيات السورة حتى الآية

الرابعة عشرة ، قال تعالى: ﴿ وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلَمَّتًا حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴾ (٨) ﴿ وَأَنَا كُنَّا نَقَعُدُّ مِنْهَا مَقْعُودَ السَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعُ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شُهَابًا رَصَدًا ﴾ (٩) ﴿ وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدَ يَمَنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ (١٠) ﴿ وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قَدَدًا ﴾ (١١) ﴿ وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا ﴾ (١٢) ﴿ وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى ءَامَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَحْسَ آلِهَةٍ وَلَا رَهَقًا ﴾ (١٣) ﴿ وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَلِيسُطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴾ (١٤) ﴿

(٤)

(١) التحرير والتنوير (١٢/٢٢٤).

(٢) سورة الجن، الآية: ٧.

(٣) التحرير والتنوير (١٢/٢٢٦).

(٤) سورة الجن، الآيات ٧: ١٤.

ولما كان من جملة الموحى به للنبي ﷺ المساجد، والتي هي معالم التوحيد الخالص لله ﷻ، وأن عبده ونبيه محمدا ﷺ قام مجهدا في عبادة ربه، تاليا الوحي المنزل عليه من السماء، داعيا عباد الله إلى التوحيد ونبذ الشرك كادت الجن يركب بعضها بعضا من فرط تراجحها عليه لاستماع قراءته قال تعالى: ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ۝١٨ ۝ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدَا ۝١٩ ۝ ﴾<sup>(١)</sup>.

هذا وطريقة التوكيد الواردة في فاتحة السورة الكريمة هي بعينها الطريقة الواردة في وسطها وخاتمتها، مع تجدد صيغة وأسلوب الأمر للنبي ﷺ قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ۝٢٠ ۝ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ۝٢١ ۝ قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ۝٢٢ ۝ ﴾<sup>(٢)</sup>، وفي ختام السورة يخاطب الله ﷻ رسوله ﷺ بنفس صيغة الأمر (قل) التي افتتحت السورة الكريمة بها، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ أَدْرَيْتَ أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ۝٢٥ ۝ ﴾<sup>(٣)</sup>.

ولما كان الأمر بإبلاغ الوحي والرسالة هو المقصود الأسمى في آيات السورة الكريمة جاء ذلك مهيمنا على السورة كلها بدءا بفاتحتها ﴿ قُلْ أُوْحَىٰ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ ۝ ﴾<sup>(٤)</sup> مروراً بوسطها في قوله تعالى: ﴿ إِلَّا بَلَّغْنَا مِن اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَن يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا ۝٢٣ ۝ ﴾<sup>(٥)</sup> وانتهاءً بخاتمتها في قوله تعالى: ﴿ لِيَعْلَمَ أَنَّ قَدْ أَجْلَعُوا رِسَالَتِي رَيْبَهمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ۝٢٨ ۝ ﴾<sup>(٦)</sup>.

(١) سورة الجن، الآيات (١٨: ١٩).

(٢) سورة الجن، الآيات (٢٠: ٢٢).

(٣) سورة الجن، الآية: ٢٥.

(٤) سورة الجن، الآية: ١.

(٥) سورة الجن، الآية: ٢٣.

(٦) سورة الجن، الآية: ٢٨.

---

---

وهذا الختام التي اختتمت به السورة الكريمة مناسب في المعنى لما ذكر في جملتها فتتلاقى فاتحة السورة مع الوسط والختام.

هذا ولم تخرج السورة الكريمة في جملتها عما جاء في فاتحتها من الحديث عن القرآن وتعداد ما انطوى عليه من ذكر الإيمان بوحداية الله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر الذي يفصل الله فيه بين عباده، فالمسلمون على منابر من نور لأنهم تحرو طريق الإسلام والرشاد، وأما الكافرون الجائرون فكانوا لجهنم حطبا.

## المطلب الثاني

### سورة العلق

سورة العلق هي السورة السادسة والستون جاءت فاتحتها غاية في روعة الأسلوب وبراعة الاستهلال، قال تعالى: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)﴾<sup>(١)</sup>.

قال ابن عاشور رحمه الله: هي مكية باتفاق، وهي أول سورة نزلت في القرآن، ونزل أولها بغار حراء على النبي ﷺ<sup>(٢)</sup>. وقد ثبت ذلك في صحيح الإمام البخاري - رحمه الله - فقد أخرج بسنده إلى أم المؤمنين عائشة أنها قالت: «أول ما بُدئ به رسول الله ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبَّابَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّنُ فِيهِ - وَهُوَ التَّعْبُدُ - اللَّيَالِي ذَوَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ، وَيَنْزُودُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَنْزُودُ لِمِثْلِهَا، حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ: اقْرَأْ، قَالَ: «مَا أَنَا بِقَارِيءٍ»، قَالَ: " فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِيءٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِيءٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣)﴾<sup>(٣)</sup> فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرْجِفُ فُؤَادُهُ»<sup>(٤)</sup>.

وافتتاح السورة بكلمة (اقرأ) تلقين النبي ﷺ الكلام القرآني وتلاوته، وفيه إيذان بأن رسول الله ﷺ سيكون قارئاً أي تاليا كتاباً، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَسْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ

(١) سورة العلق، الآيات ١ : ٥ .

(٢) التحرير والتنوير (٢/٤٢٣).

(٣) سورة العلق، الآيات ١ : ٣ .

(٤) صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ (٧/١) رقم ٣.

وَلَا تَخْطُطُهُ بِيَمِينِكَ ﴿١﴾، أي من قبل نزول القرآن، ولذلك قال النبي ﷺ لجبريل عليه السلام حين قال له اقرأ " ما أنا بقارئ" وفي هذا الافتتاح براعة استهلال للقرآن<sup>(١)</sup>.

ولقد جاء المقصد الأسمى للسورة الكريمة لتقرير أمر العقيدة؛ فتحدثت عن وحدانية الله عز وجل، حيث جاء الأمر بالقراءة مقترنا بوصف الربوبية لبيان أن الرب هو الخالق للعوالم العلوية والسفلية كما قال تعالى: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلِيقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ (١٣) غافر: ٦٢، قال البيضاوي رحمه الله: ولما كان أول الواجبات معرفة الله سبحانه وتعالى نزل أولا ما يدل على وجوده وفرط قدرته، وكمال حكمته<sup>(٢)</sup> قال تعالى: ﴿

أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (١) ﴿٤﴾.

وأما تقرير أمر الرسالة فذلك واضح من نزول الوحي على النبي - صلى الله عليه وسلم - بصدر هذه السورة وأمره بالقراءة مستعينا باسم ربه الذي خلق.

وأما تقرير أمر البعث فلم يرد صراحة في السورة الكريمة وإنما يستدل به بصفة الخلق ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ لأن القادر على الخلق والإيجاد من العدم قادر على الإعادة قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَبُ عَلَيْهِ﴾ الروم: ٢٧.

والأمر بالقراءة يقتضي مقروءا وعليه يكون التقدير: اقرأ ما يوحى إليك، أو ما نزل عليك، أو ما أمرت بقراءته، أو يكون الأمر بالقراءة أمرا تكوينيا والمعنى: كن قارئاً على خلاف عادة الأميين تقرأ باسم ربك الذي أنشأ الإنسان من علق، وعلمه القراءة والكتابة، بل وعلمه ما لم يكن يعلم.

وبراعة الاستهلال في افتتاح السورة بالأمر بالقراءة مستعينا باسم الرب جلّ وعلا يتطلب تأملا حيث تبدأ باسم الله، وتوجه الرسول ﷺ أول ما توجه، في أول لحظة من لحظات

(١) سورة العنكبوت، من الآية: ٤٨.

(٢) التحرير والتنوير (٤٣٥/١٢).

(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (٣٢٥/٥).

(٤) سورة العلق، الآية ١.

اتصاله بالملا الأعلى ، وفي أول خطوة من خطواته في طريق الدعوة التي اختير لها . . توجهه إلى أن يقرأ باسم الله : { اقرأ باسم ربك } . .

"وفي الاستعانة بذكر اسمه تعالى إثباتاً لوحديته بالألوهية وإبطالاً للنداء باسم الأصنام الذي كان يفعله المشركون يقولون : باسم اللات ، باسم العزى . فهذا أول ما جاء من تعاليم الإسلام قد افتتح به أول الوحي، وعدل عن اسم الله العلم إلى صفة ( ربك ) لما يؤذن وصف الرب من الرأفة بالمربوب والعناية به، مع ما يتأتى بذكره من إضافته إلى ضمير النبي ﷺ إضافة مؤذنة بأنه المنفرد بربوبيته عنده رداً على الذين جعلوا لأنفسهم أرباباً من دون الله فكانت هذه الآية أصلاً للتوحيد في الإسلام .

وجيء في وصف الرب بطريق الموصول ( الذي خلق ) ولأن في ذلك استدلالاً على انفراد الله بالإلهية، وإذا كانت علة الإقبال على ذكر اسم الرب هي أنه خالق دل ذلك على بطلان الإقبال على ذكر غيره الذي ليس بخالق ، فالمشركون كانوا يقبلون على اسم اللات واسم العزى ، وكون الله هو الخالق يعترفون به قال تعالى ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾<sup>(١)</sup> فلما كان المقام مقام ابتداء كتاب الإسلام دين التوحيد كان مقتضياً لذكر أدل الأوصاف على وحدانيته جلّ وعلا مقترباً بها<sup>(٢)</sup>.

ولما كانت نعمة الخلق من أجل النعم وأعظمها، وسائر النعم مرتب عليها جاء وصف الرب جلّ وعلا بما ( الذي خلق).

"ثم كرر الأمر بالقراءة للتأكيد والتقرير فقال: ( اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ) أي: أفعَلْ مَا أُمِرْتَ بِهِ مِنَ الْقِرَاءَةِ، وَجُمْلَةُ ( وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ) مُسْتَأْنَفَةٌ لِإِزَاحَةِ مَا اعْتَدَرَ بِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ قَوْلِهِ: «مَا أَنَا بِقَارِيءٍ»، يُرِيدُ أَنَّ الْقِرَاءَةَ شَأْنٌ مَنْ يَكْتُبُ وَيَقْرَأُ وَهُوَ أُمِّيٌّ، فَقِيلَ لَهُ: اقْرَأْ، وَرَبُّكَ الَّذِي أَمَرَكَ بِالْقِرَاءَةِ هُوَ الْأَكْرَمُ، فَالَّذِي عَلَّمَ الْإِنْسَانَ بِالْقَلَمِ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَعْلَمَكَ كُلَّ مَكْتُوبٍ.

(١) سورة لقمان، من الآية: ٢٥.

(٢) التحرير والتنوير (١٢/٤٣٧).



قَالَ قَتَادَةُ: الْقَلَمُ نِعْمَةٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَظِيمَةٌ، لَوْلَا ذَلِكَ لَمْ يَقُمْ دِينَ وَلَمْ يَصْلَحْ عَيْشٌ، فَدَلَّ عَلَى كَمَالِ كَرَمِهِ بِأَنَّهُ عَلَّمَ عِبَادَهُ مَا لَمْ يَعْلَمُوا وَنَقَلَهُمْ مِنْ ظُلْمَةِ الْجَهْلِ إِلَى نُورِ الْعِلْمِ، وَنَبَّهَ عَلَى فَضْلِ عِلْمِ الْكِتَابَةِ لِمَا فِيهِ مِنَ الْمَنَافِعِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي لَا يُحِيطُ بِهَا إِلَّا هُوَ، وَمَا دَوَّتِ الْعُلُومُ وَلَا قَيَّدَتِ الْحِكْمُ وَلَا ضَبَطَتِ أَحْبَارُ الْأَوْلِيَيْنِ وَمَقَالَاتُهُمْ وَلَا كُتِبَ اللَّهُ الْمُنَزَّلَةُ إِلَّا بِالْكِتَابَةِ، وَلَوْلَا هِيَ مَا اسْتَقَامَتِ أُمُورُ الدِّينِ وَلَا أُمُورُ الدُّنْيَا<sup>(١)</sup>.

ومن حيث إن الله ذكر الإنسان خلقه ونشأة وعلمها وتعلما فقد جاءت الآيات بعدها في تحليل طبيعة هذا الإنسان وأن طبيعته الطغيان إذا أحس من نفسه الاستغناء قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَاطِفٌ﴾ (٦) ﴿أَنْ رَأَاهُ اسْتَفْتَى﴾ (٧) ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجُوعَ﴾ (٨) ﴿١﴾، ثم استدلّت السورة على ذلك بذكر نموذجاً عجيباً لطبيعة إنسان هو أبو جهل الذي اغتر وكذب بآيات الله تعالى، وأعرض عن الإيمان بالله ورسوله، ولم يكتف بهذا بل تمادى في غيئه ناهياً رسول الله ﷺ عن الصلاة والتقرب إلى الله تعالى بالعبادة والطاعة، قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ﴾ (٩) ﴿عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ﴾ (١٠) ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ﴾ (١١) ﴿أَوْ أَمَرَ بِالْقَوَىٰ﴾ (١٢) ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ (١٣) ﴿أَلَرَيْعَمَ يَأْتِي اللَّهَ بَرِيًّا﴾ (١٤) ﴿٢﴾.

ثم ذكرت الآيات عقاب هذا الإنسان الطاغية المستغني بعشيرته وماله، وهددته وزجرته إن هو أصر على ذلك، قال تعالى: ﴿كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعْنَا بِالنَّاصِيَةِ﴾ (١٥) ﴿نَاصِيَةٍ كَذِبِي خَاطِقَةٍ﴾ (١٦) ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ (١٧) ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ (١٨) ﴿٤﴾.

ثم فهمي الله نبيه ﷺ عن طاعة هذا الإنسان الكافر، وأمره بالتقرب إليه بالطاعة والسجود بين يديه، قال تعالى: ﴿كَلَّا لَا تُطَعُّهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ (٥).

(١) فتح القدير للشوكاني، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٤ هـ - (٥٧١/٥).

(٢) سورة العلق، الآيات ٦: ٨.

(٣) سورة العلق، الآيات ٩: ١٤.

(٤) سورة العلق، الآيات ١٥: ١٨.

(٥) سورة العلق، الآية: ١٩.

وزيادة على ما في تماسك معاني السورة من أولها إلى آخرها فإن الإمام السيوطي رحمه الله أراد أن يجعل من فاتحتها براعة استهلال للقرآن كله باعتبارها أول سورة نزلت، فقال رحمه الله: " وَكَذَلِكَ أَوَّلُ سُورَةٍ " أَقْرَأُ"، فَإِنَّهَا مُشْتَمِلَةٌ عَلَى نَظِيرِ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ الْفَاتِحَةُ مِنْ بَرَاعَةِ الِاسْتِهْلَالِ لِكَوْنِهَا أَوَّلَ مَا أُنزِلَ مِنَ الْقُرْآنِ فَإِنَّ فِيهَا الْأَمْرَ بِالْقِرَاءَةِ وَالْبَدَاءَةَ فِيهَا بِاسْمِ اللَّهِ وَفِيهِ الْإِشَارَةُ إِلَى عِلْمِ الْأَحْكَامِ وَفِيهَا مَا يَتَعَلَّقُ بِتَوْحِيدِ الرَّبِّ وَإِثْبَاتِ ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ مِنْ صِفَةِ ذَاتِ وَصِفَةِ فِعْلٍ وَفِي هَذِهِ الْإِشَارَةُ إِلَى أُسُولِ الدِّينِ وَفِيهَا مَا يَتَعَلَّقُ بِالْأَخْبَارِ مِنْ قَوْلِهِ: {عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} وَلِهَذَا قِيلَ إِنَّهَا جَدِيرَةٌ أَنْ تُسَمَّى عُنْوَانَ الْقُرْآنِ لِأَنَّ عُنْوَانَ الْكِتَابِ يَجْمَعُ مَقَاصِدَهُ بِعِبَارَةٍ وَجِيزَةٍ فِي أَوَّلِهِ"<sup>(١)</sup>.

(١) الإيقان في علوم القرآن، لـ جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة:

## المطلب الثالث

### سورة الكافرون

أما سورة الكافرون فهي السورة التاسعة بعد المائة " وهي مكية كلها"<sup>(١)</sup>، وهدف السورة أن التوحيد والشرك لا يلتقيان أبداً، وتبييس الكفرة من أن يوافقهم النبي صلى الله عليه وسلم في شيء من الكفر، فقد أمر الله تعالى فيها نبيه محمداً ﷺ أن يرد على الكفرة حين " عرضوا عليه أن يعبدوا الله سنة على أن يعبد نبي الله آهتهم سنة فأنزل الله معرفة جوابهم في ذلك"<sup>(٢)</sup> بقوله تعالى ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ (٦) وَلِي دِينِ (٦) ﴾<sup>(٣)</sup>، وفي هذا الرد منه ﷺ قطع لأطماعهم وتبييسهم، والإصرار على أنه ﷺ لا يعبد آهتهم أبداً ، وهم لا يعبدون ما يعبد، وهم دينهم، وله دينه، ليس في السورة الكريمة شيء خارج عن ذلك.

وبراعة الاستهلال في السورة الكريمة تظهر من خلال عرض الغرض العام لتلك السورة الكريمة، وفيه يقول ابن عاشور رحمه الله تعالى " الغرض الذي اشتملت عليه تأييسهم من أن يوافقهم في شيء مما هم عليه من الكفر بالقول الفصل المؤكد في الحال والاستقبال وأن دين الإسلام لا يخالط شيئاً من دين الشرك، وافتتاحها ب (قل) للاهتمام بما بعد القول بأنه كلام يراد إبلاغه إلى الناس بوجه خاص منصوص فيه على أنه ﷺ مرسل بقول يبلغه وإلا فإن القرآن كله مأمور بإبلاغه، وهذه الآية نظائر في القرآن مفتوحة بالأمر بالقول في غير جواب

(١) تفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين (١٦٩/٥)، والهداية على بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب (٨٤٧٣/١٢)، ومعالم التنزيل للبعوي (٣١٧/٥).

(٢) جامع البيان للطبري (٦٦١/٢٤).

(٣) سورة الكافرون.

عن سؤال منها: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ﴾<sup>(١)</sup> وابتدئ خطابهم بالنداء لإبلاغهم، لأن النداء يستدعي إقبال أذهانهم على ما سيلقى عليهم<sup>(٢)</sup>. وفي بيان فوائد الافتتاح بأسلوب الأمر (قل) وتجلية براعة استهلال السورة الكريمة به يقول العلامة الرازي رحمه الله تعالى "اعلم أن قوله تعالى (قل) فيه فوائد:

أحدها: أنه عليه السلام كان مأمورا بالرفق واللين في جميع الأمور كما قال: ﴿فِيمَا رَحِمْتَهُ مِنْ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْتِ لَهْمٌ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِظَ الْقَلْبُ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾<sup>(٣)</sup> ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رِءُوفٌ رَجِيمٌ﴾<sup>(٤)</sup> ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾<sup>(٥)</sup> ثم كان مأمورا بأن يدعو إلى الله بالوجه الأحسن: ﴿وَحَدِّدْ لَهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾<sup>(٦)</sup> ولما كان الأمر كذلك، ثم إنه خاطبهم بيا أيها الكافرون فكانوا يقولون: كيف يليق هذا التعليل بذلك الرفق فأجاب بأني مأمور بهذا الكلام لا أتي ذكرته من عند نفسي فكان المراد من قوله: قل تقرير هذا المعنى.

ثانيها: أنه لما قيل له: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾<sup>(٧)</sup> وهو كان يجب أقرباءه لقوله: ﴿قُلْ لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾<sup>(٨)</sup> فكانت القرابة ووحدة النسب كالمانع من إظهار الخشونة فأمر بالتصريح بتلك الخشونة والتعليل ف قيل له: قل.

ثالثها: أنه لما قيل له: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾<sup>(٩)</sup> فأمر بتبليغ كل ما أنزل عليه، فلما قال الله تعالى له: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا

(١) سورة الجمعة، من الآية: ٦.

(٢) التحرير والتنوير (٥٨٠/١٢).

(٣) سورة آل عمران، من الآية: ١٥٩.

(٤) سورة التوبة، من الآية: ١٢٨.

(٥) سورة الأنبياء، الآية ١٠٧.

(٦) سورة النحل، من الآية: ١٢٥.

(٧) سورة الشعراء، الآية: ٢١٤.

(٨) سورة الشورى، من الآية: ٢٣.

(٩) سورة المائدة، من الآية: ٦٧.

الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ نقل هو عليه السلام هذا الكلام بجملته كأنه قال: إنه تعالى أمرني بتبليغ كل ما أنزل علي والذي أنزل علي هو مجموع قوله: (قل يا أيها الكافرون) فأنا أيضا أبلغه إلى الخلق هكذا.

رابعها: أنه لو أنزل قوله: (يا أيها الكافرون) لكان يقرؤها عليهم لا محالة، لأنه لا يجوز أن يخون في الوحي إلا أنه لما قال: (قل) كان ذلك كالتأكيد في إيجاب تبليغ هذا الوحي إليهم، والتأكيد يدل على أن ذلك الأمر أمر عظيم فهذا الطريق تدل هذه الكلمة على أن الذي قالوه وطلبوه من الرسول أمر منكر في غاية القبح ونهاية الفحش" (٢).

وتودوا بوصف الكافرين تحقيراً لهم وتأييداً لوجه التبرؤ منهم وإيداناً بأنه لا يخشاهم إذا ناداهم بما يكرهون مما يثير غضبهم لأن الله كفاه إياهم وعصمه من أذاهم (٣).

وأما التكرار الوارد في السورة الكريمة فإنما هو للتأكيد والتيسير ونفي عبادة كل فريق لمعبود غيره في جميع الأوقات حالا ومستقبلا، وقد أشار الإمام القرطبي رحمه الله إلى ذلك بقوله " وَأَمَّا وَجْهُ التَّكْرَارِ فَقَدْ قِيلَ إِنَّهُ لِلتَّأْكِيدِ فِي قَطْعِ أَطْمَاعِهِمْ، كَمَا تَقُولُ: وَاللَّهِ لَا أَفْعَلُ كَذَا، ثُمَّ وَاللَّهِ لَا أَفْعَلُهُ" (٤).

(١) سورة الكافرون، الآية: ١.

(٢) تفسير الفخر الرازي، دار إحياء التراث العربي - بيروت الطبعة: الثالثة - ١٤٢٠ هـ - (٣٢٢/٣٢٣/٣٢٤).

(٣) التحرير والتنوير (٥٨١/٣٠).

(٤) تفسير القرطبي، دار الكتب المصرية - القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م (٢٢٦/٢٠).

## المطلب الرابع

### سورة الإخلاص

أما سورة الإخلاص وهي السورة الثانية عشرة بعد المائة ، وقد تضمنت التوحيد الخالص وذلك بنفي الشرك بجميع أنواعه فقد نفى الله عن نفسه أنواع الكثرة والتعدد بالأمر — (( قل هو الله أحد ))؛ ونزّه نفسه عن احتياجه لخلقه بقوله: (( الله الصمد ))؛ ونفى عن نفسه الجانسة والمشاهدة بقوله: (( لم يلد )) ونفى عن نفسه الحدوث بقوله: (( ولم يولد ))؛ ونفى عن نفسه الأنداد بقوله: (( ولم يكن له كفوا أحد )).

قال القرطبي: " قال أهل التفسير: نزلت الآية جواباً لأهل الشرك لما قالوا لرسول الله ﷺ: صف لنا ربك، أمّن ذهب هو أم من نحاس أم من صفر؟ فقال الله عز وجل ردّاً عليهم<sup>(١)</sup>: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾<sup>(٢)</sup>، وأما مجيء الأمر بالقول ( قل ) في هذه السورة الكريمة فلأن " هذا التوحيد يقول به النبي ﷺ تارة، ويؤمر بأن يدعو إليه أخرى"<sup>(٣)</sup>.

ويذكر الطاهر بن عاشور أغراض تلك السورة الكريمة مبينا وجه براعة الاستهلال فيها فيقول — رحمه الله —: " أغراضها: إثبات وحدانية الله تعالى، وأنه لا يقصد في الحوائج غيره وتبريئه عن سمات المحدثات، وإبطال أن يكون له ابن، وإبطال أن يكون المولود إلهاً مثل عيسى عليه السلام، افتتاح هذه السورة بالأمر بالقول لإظهار العناية بما بعد فعل القول، ولذلك الأمر في هذه السورة فائدة أخرى ، وهي أنها نزلت على سبب قول المشركين : انسب لنا ربك ، فكانت جواباً عن سؤالهم فلذلك قيل له : ( قل ) كما قال تعالى: ﴿ قُلِ

الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾<sup>(٤)</sup> فكان للأمر بفعل ( قل ) فائدتان"<sup>(٥)</sup>.

(١) تفسير القرطبي ( ٢٠ / ٢٤٦ ) .

(٢) سورة الإخلاص، الآية: ١ .

(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٨ هـ - ( ٥ / ٣٤٧ ) .

(٤) سورة الإسراء، من الآية: ٨٥ .

(٥) التحرير والتنوير ( ٣٠ / ٦١٢ ) .

فالسورة الكريمة كما ترى ليس فيها شيء إلا وهو وصف وتزييه لله تعالى، فالوحدانية الخالصة التي لا يشوبها أدنى شرك له سبحانه وتعالى فهو واحد في ذاته وصفاته وأفعاله لا شريك له في شيء من ذلك، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾<sup>(١)</sup>.  
يقول الإمام القرطبي رحمه الله: أي الواحد الوتر الذي لا شبيه له ولا نظير، ولا صاحبة، ولا ولد ولا شريك<sup>(٢)</sup>.

ويقول الطاهر بن عاشور في معنى الآية: وهذا يبطل للشرك الذي يدين به أهل الشرك، وللتثليث الذي أحدثه النصاري المملكانية والثانوية عند الجوس، وللعَدَد الذي لا يُحصى عند البراهمة<sup>(٣)</sup>.

والصمدانية بمعنى أنه المقصود في الحوائج، محتاج إليه غيره، غير محتاج هو إلى غيره، لا حاجة به إلى طعام أو شراب لأنه صمد لا جوف له، ولا يشبه الحوادث في شيء، قال تعالى شأنه ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾<sup>(٤)</sup>.

يقول الطاهر بن عاشور رحمه الله: فالصمد معناه المفتقر إليه كل ما عداه، فالمعدوم مفتقر وجوده إليه والموجود مفتقر في شؤونه إليه<sup>(٥)</sup>.

وقد ذكر الآلوسي أقوالاً عن السلف منها: عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أنه قال: هو السيد الذي قد كمل في سؤدده، والشريف الذي قد كمل في شرفه، والعظيم الذي قد كمل في عظمته، والحليم الذي قد كمل في حلمه، والعليم الذي قد كمل في علمه، والحكيم الذي قد كمل في حكمته، وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد.  
وعن أبي هريرة هو المستغني عن كل أحد المحتاج إليه كل أحد.  
وعن ابن جبير هو الكامل في جميع صفاته وأفعاله<sup>(٦)</sup>.

(١) سورة الإخلاص، الآية: ١.

(٢) تفسير القرطبي (٢٠/٢٤٤).

(٣) التحرير والتنوير (٣٠/٦١٥).

(٤) سورة الإخلاص، الآية: ١.

(٥) التحرير والتنوير (٣٠/٦١٧).

(٦) تفسير الآلوسي، الناشر/ دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ - (١٥/٥١٢).

وهو سبحانه وتعالى ليس له نوع تولد منه وما اتخذ صاحبة ولا ولدا قال تعالى ( لم يلد ) ولم يكن سبحانه متولدا من غيره قال تعالى: ( ولم يولد ) .

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَمْ يَلِدْ كَمَا وَلَدَتْ مَرْيَمُ، وَلَمْ يُولَدْ كَمَا وَلَدَ عِيسَى وَعُزَيْرٌ. وَهُوَ رَدُّ عَلَى النَّصَارَى، وَعَلَى مَنْ قَالَ: عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ<sup>(١)</sup>.

يقول الآلوسي رحمه الله: ونفى ذلك عنه تعالى لأن الولادة تقتضي انفصال مادة منه سبحانه وذلك يقتضي التركيب المتألف للصمدية والأحدية، أو لأن الولد من جنس أبيه ولا يجانسه تعالى أحد لأنه سبحانه واجب وغيره ممكن لأن الولد على ما قيل يطلبه العاقل إما لإعانتته أو ليخلفه بعده وهو سبحانه دائم باق غير محتاج إلى شيء من ذلك والاقتصار على الماضي دون أن يقال لن يلد لوروده ردا على من قال إن الملائكة بنات الله سبحانه أو المسيح ابن الله تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا. ويجوز أن يكون المراد استمرار النفي، وعبر بالماضي لمشكلة قوله تعالى وَلَمْ يُولَدْ وهو لا بد أن يكون بصيغة الماضي<sup>(٢)</sup>.

ولما كان سبحانه ليس له نظير ولا متكافئ معه من قرابة وما يشبهها أعقب ذلك بقوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾<sup>(٣)</sup> فوجدانيتها وألوهيته أغنته عن التماس المعونة في والد أو ولد أو قريب، وما دام سبحانه في غنى عن ذلك فإنه ليس كذلك وليس كمثلته شيء. يقول الإمام الرازي رحمه الله: اعلم أن هذه السورة أربع آيات وفي ترتيبها أنواع من الفوائد.

الفائدة الأولى: أن أول السورة يدل على أنه سبحانه واحد والصمد على أنه كريم رحيم لأنه لا يصمد إليه حتى يكون محسناً و لم يلد ولم يولد على أنه غني على الإطلاق ومتره عن التغيرات فلا يبخل بشيء أصلاً ولا يكون جوده لأجل جر نفع أو دفع ضر بل بمحض الإحسان وقوله ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾<sup>(٤)</sup> إشارة إلى نفي مالا يجوز عليه من الصفات.

(١) تفسير القرطبي (٢٠/٢٤٦).

(٢) تفسير الآلوسي (١٥/٥١٣).

(٣) سورة الإخلاص، الآية: ٤.

(٤) سورة الإخلاص، الآية: ٤.



الفائدة الثانية: نفي الله تعالى عن ذاته أنواع الكثرة بقوله أَحَدٌ ونفي النقص والمعلومية بلفظ (الصمد) ونفي المعلومية والعلية بـ (لم يلد ولم يولد) ونفي الأضداد والأنداد بقوله ﴿

وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾<sup>(١)</sup>.

الفائدة الثالثة: قوله أَحَدٌ يبطل مذهب الثنوية القائلين بالنور والظلمة والنصارى في التثليث والصابين في الأفلاك والنجوم والآية الثانية تبطل مذهب من أثبت خالقاً سوى الله لأنه لو وجد خالق آخر لما كان الحق مصموداً إليه في طلب جميع الحاجات والثالثة تبطل مذهب اليهود في عزير والنصارى في المسيح والمشركون في أن الملائكة بنات الله والآية الرابعة تبطل مذهب المشركين حيث جعلوا الأصنام أكفاء له وشركاء<sup>(٢)</sup>.

وهذه السورة الكريمة قد انطوت مع قصر آياتها على أشد المعارف الإلهية، ولتمحصها وتخصصها في وحدانية الله تعالى وصفاته أخبر الرسول ﷺ أنها تعدل ثلث القرآن على اعتبار أن القرآن إما في موضوع الحديث عن الله ووحدانيته وصفاته وقدرته وحكمته وما شابه ذلك، وإما في موضوع الأحكام والتشريع وأفعال العباد خيرها وشرها، وحلالها وحرامها، وإما في موضوع اليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب، أخرج البخاري في صحيحه عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، أَنَّ رَجُلًا سَمِعَ رَجُلًا يَقْرَأُ: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} يُرَدِّدُهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ، جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، وَكَانَ الرَّجُلُ يَتَقَالُّهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ<sup>(٣)</sup>.

(١) سورة الإخلاص، الآية: ٤.

(٢) تفسير الرازي (١٧٠/٣٢).

(٣) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب فضل {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} (٢٣٣/٦) برقم ٥٠١٣.

## المطلب الخامس

### سورة الفلق

أما سورة الفلق فهي السورة الثالثة عشرة بعد المائة في ترتيب المصحف الشريف، هي والسورة التي بعدها أعني سورة الناس هما السورتان الأخيرتان في ترتيب المصحف الشريف، وتسميان بالمُعَوِّذَتَيْنِ لأنهما يتعوذ بهما من الشرور والآفات، كما أن فاتحة كل منهما طلب الله من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يلجأ إليه ويستعيذ به من شر كل ذي شر؛ فهو خير من يُلجأ إليه ويستعاذ به.

والملاحظ فيهما بصفة عامة أن الكلام في كل منهما ينقسم إلى مستعاذ به في فاتحة السورة، ومستعاذ منه في بقية آياتها، والمستعاذ به في فاتحة سورة الفلق هو رب الفلق، قال تعالى: ﴿

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝<sup>(١)</sup>، والفلق بمعنى المفلوق الذي حصل فيه فلق وشق.

يقول الإمام الشوكاني رحمه الله: الْفَلَقُ الصُّبْحُ، يُقَالُ: هُوَ أَبْيَنُ مِنَ فَلَاقِ الصُّبْحِ، وَسُمِّيَ فَلَقًا لِأَنَّهُ يُفَلِّقُ عَنْهُ اللَّيْلَ، وَهُوَ فَعَلٌ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ، قَالَ الرَّجَّازُ: لِأَنَّ اللَّيْلَ يَنْفَلِقُ عَنْهُ الصُّبْحُ، وَيَكُونُ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ، يُقَالُ: هُوَ أَبْيَنُ مِنَ فَلَاقِ الصُّبْحِ، وَمِنْ فَرَقِ الصُّبْحِ، وَهَذَا قَوْلُ جُمْهُورِ الْمُفَسِّرِينَ<sup>(٢)</sup>.

وقال الإمام القرطبي رحمه الله: هَذَا الْقَوْلُ يَشْهَدُ لَهُ الْإِشْتِقَاقُ، فَإِنَّ الْفَلَاقَ الشَّقُّ. فَلَقْتُ الشَّيْءَ فَلَقًا أَيَّ شَقَّقْتَهُ. وَالتَّفْلِيقُ مِثْلُهُ. يُقَالُ: فَلَقْتُهُ فَأَنْفَلَقَ وَتَفَلَّقَ. فَكُلُّ مَا أَنْفَلَقَ عَنْ شَيْءٍ مِنْ حَيَوَانَ وَصُحْبٍ وَحَبٍّ وَتَوَى وَمَاءٍ فَهُوَ فَلَقٌ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿

فَالِقُ الْإِصْبَاحِ ۝<sup>(٣)</sup> فَالِقُ الْوَيْ وَالتَّوَى<sup>(٤)(٥)</sup>.

(١) سورة الفلق، الآية: ١.

(٢) فتح القدير (٥/٦٣٨، ٦٣٩).

(٣) سورة الأنعام، من الآية: ٩٦.

(٤) سورة الأنعام، من الآية: ٩٥.

(٥) تفسير القرطبي (٢٥٥/٢٠).

والاستعاذة بالرب مضافا إلى الفلق المشعر بالنور بعد الظلمة، والسعة بعد الضيق، والفتق بعد الرتق، والانفراج بعد الانسداد، مناسب كله في المعنى لما مجرد له العبد المستعيز همته من النجاة، والتخلص من الشرور التي يعددها ويخشها على نفسه وقعت به أم ستقع. والذي قدر على فعل ما في المستعاذ به قادر بل هو أقدر على فعل ما يدور في نفس المستعاذ منه.

وهذا ناسب فاتحة السورة مع بقية آياتها ولا سيما إذا راعينا أنه في المستعاذ منه بقوله تعالى: ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٤ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣﴾<sup>(١)</sup>، أي من شر الليل إذا أطبق بظلامه، أي قبل أن يفلقه الله عن الصبح إذا أسفر. يقول الإمام الشوكاني رحمه الله: "وَجَهْ تَخْصِيصِهِ أَنَّ الشَّرَّ فِيهِ أَكْثَرُ، وَالتَّحَرُّزُ مِنَ الشُّرُورِ فِيهِ أَصْعَبُ"<sup>(٢)</sup>.

وتلك براعة الاستهلال تتجلى في فاتحة السورة، يقول الآلوسي رحمه الله: "فتعليق العياذ باسم الرب المضاف إلى الفلق المنبئ عن النور عقيب الظلمة والسعة بعد الضيق والفتق بعد الرتق عدة كريمة باعادة العائد مما يعود منه وانجائه منه وتقوية لرجائه بتذكير بعض نظائره ومزيد ترغيب له في الجهد والاعتناء بقرع باب الالتجاء إليه عز وجل"<sup>(٣)</sup> ويقول الإمام الرازي رحمه الله: وتخصيصه في التعوذ لوجوه:

الأول: أن القادر على إزالة هذه الظلمات الشديدة عن كل هذا العالم يقدر أيضا أن يدفع عن العائد كل ما يخافه ويخشاه.

الثاني: أن طلوع الصبح كالمثال لمجيء الفرج، فكما أن الإنسان في الليل يكون منتظرا لطلوع الصباح كذلك الخائف يكون مترقبا لطلوع صباح النجاح.

الثالث: أن الصبح كالبشرى فإن الإنسان في الظلام يكون كلحم على وضغ، فإذا ظهر الصبح فكأنه صاح بالأمان وبشر بالفرج، فلهذا السبب يجد كل مريض ومهموم خفة في

(١) سورة الفلق (١-٢).

(٢) فتح القدير (٥/٦٤٠).

(٣) تفسير الآلوسي (٣٠/٢٧٩-٢٨٠).

وقت السحر، فالحق سبحانه يقول: قل أعوذ برب يعطي إنعام فلق الصبح قبل السؤال، فكيف بعد السؤال.

الرابع: لعل تخصيص الصبح بالذكر في هذا الموضع لأنه وقت دعاء المضطرين وإجابة الملهوفين فكأنه يقول: قل أعوذ برب الوقت الذي يفرج فيه عن كل مهموم<sup>(١)</sup>.

قوله تعالى: ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾<sup>(٢)</sup> قيل هو إبليس وذريته، وقيل جهنم، وقيل هو عام أي: من شر كل ذي شر خلقه الله تعالى<sup>(٣)</sup>.

وفي أول المستعاذ به في السورة الكريمة أعني قوله تعالى: ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾<sup>(٤)</sup> عموم بالنسبة لما بعده أي: من شر ما خلق من إنس وجن وغيرهم كأننا ما كان، وهو الذي عبر عنه القرطبي بقوله: من شر كل ذي شر خلقه الله تعالى، ثم يكون ما بعده كالتفصيل لما قبله، وأن المعنى: ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾<sup>(٥)</sup> وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ<sup>(٦)</sup>، سواء أريد بالنفثات النساء اللواتي ينفثن في عقد السحرة، أم أريد النفوس الخبيثة التي توقع الفرقة بين الرجل وأهله كما توقع الفتن والعداوة بين الناس<sup>(٧)</sup>.

﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾<sup>(٨)</sup> والحسد هو: تمنى زوال النعمة التي أنعم الله بها على المحسود، ومعنى إذا حسد: إذا أظهر ما في نفسه من الحسد وعمل بمقتضاه، وحمله الشر على إيقاع الشر بالمحسود، وأما قبل ذلك فحسده في دخيلة نفسه نار لا تأكل إلا قلبه، والحسد أول ذنب عصي الله به في السماء، وأول ذنب عصي به في الأرض، فحسد إبليس آدم، وحسد قابيل هابيل، والحاسد ممقوت عند الله، مغضوب عليه عند الناس، ولذلك أمر الله

(١) تفسير الرازي (٣٧١/٣٢).

(٢) سورة الفلق (٢).

(٣) تفسير القرطبي (٥٧٣/٢٢).

(٤) سورة الفلق (٢).

(٥) سورة الفلق، الآيات (٣-٤).

(٦) تفسير ابن كثير (٦٤٣/٢).

(٧) سورة الفلق، الآية: ٥.

رسوله ﷺ أول السورة أن يتعوذ من جميع الشرور فقال ﴿ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾<sup>(١)</sup>، وجعل خاتمة ذلك الحسد تنبيها على عظمه وكثرة ضرره.

يقول الإمام الشوكاني رحمه الله: كَرَّرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ إِرْشَادَ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْإِسْتِعَاذَةِ مِنْ شَرِّ كُلِّ مَخْلُوقَاتِهِ عَلَى الْعُمُومِ، ثُمَّ ذَكَرَ بَعْضَ الشُّرُورِ عَلَى الْخُصُوصِ مَعَ انْدِرَاجِهِ تَحْتَ الْعُمُومِ لِزِيَادَةِ شَرِّهِ وَمَزِيدِ ضَرِّهِ، وَهُوَ الْغَاسِقُ وَالْتَفَائِتُ وَالْحَاسِدُ، فَكَأَنَّ هَؤُلَاءِ لِمَا فِيهِمْ مِنْ مَزِيدِ الشَّرِّ حَقِيقُونَ بِأَفْرَادٍ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِالذِّكْرِ<sup>(٢)</sup>.  
وهذا تتجلى براعة الاستهلال بين فاتحة السورة وبقية آياتها.

(١) سورة الفلق (٢).

(٢) تفسير الشوكاني (٦٥٥/٥)

## المطلب السادس

### سورة الناس

أما سورة الناس فهي السورة الرابعة عشرة بعد المائة، وهي السورة الأخيرة في ترتيب المصحف الشريف، وقد شابهت فاتحتها فاتحة سورة الفلق، إلا أن سورة الفلق فيها التعوذ برب الفلق من شر الخلق جميعا، أما سورة الناس ففيها التعوذ برب الناس من شر المخلوقات الخفية وهي شياطين الجن الذين يغالون نفوس بني آدم، وكذلك شياطين الإنس الذين يوحون بالشر وتدبير المكائد والإغراء بالضلال والإعراض عن الهدى.

يقول الإمام الرازي رحمه الله: واعلم أن هذه السورة لطيفة أخرى وهي أن المستعاذ به في السورة الأولى مذكور بصفة واحدة وهي أنه رب الفلق والمستعاذ منه ثلاثة أنواع من الآفات وهي الغاسق والنفاثات والحاسد وأما في هذه السورة فالمستعاذ به مذكور بصفات ثلاثة وهي الرب والملك والإله والمستعاذ منه آفة واحدة وهي الوسوسة والفرق بين الموضعين أن الثناء يجب أن يتقدر بقدر المطلوب فالمطلوب في السورة الأولى سلامة النفس والبدن والمطلوب في السورة الثانية سلامة الدين وهذا تنبيه على أن مضرة الدين وإن قلت أعظم من مضار الدنيا وإن عظمت<sup>(١)</sup>.

وكما رأينا التناسب والتناسق بين المستعاذ به والمستعاذ منه في سورة الفلق، نعود فنراه في سورة الناس كذلك، فالركيزة الأساسية التي تسري في معظم آيات السورة كلها وتبني عليها معانيها هي كلمة " الناس " فآيات السورة ست آيات وقد ذكرت كلمة " الناس " خمس مرات في خمس منها، وهي في كثير منها يعتبر مكررا بلفظه كان يُعني عنه ضميره، كأن يُقال - في غير القرآن - ملكهم وإلهم إلى آخره لكنه وضع الظاهر موضع المضمير " لأن عطف البيان يحتاج إلى مزيد الإظهار، ولأن التكرير يقتضي مزيد شرف الناس"<sup>(٢)</sup>، والمستعاذ به هو (رب الناس) الذي رباهم على نعمه وموائد كرمه (ملك الناس) أي مالك أمورهم ملكا تاما بالسلطان القاهر بالتصرف الكلي في أمورهم لا كما يملك سائر الملأ.

(١) تفسير الرازي (٣٢/١٨٢).

(٢) تفسير الشوكاني (٥/٦٤٢).

يقول الإمام الشوكاني: وَقَوْلُهُ: مَلِكِ النَّاسِ عَطْفُ بَيَانِ جِيءَ بِهِ لِبَيَانِ أَنَّ رَبِّيَّتَهُ سُبْحَانَهُ لَيْسَتْ كَرَبِيَّةِ سَائِرِ الْمَلَائِكَةِ لِمَا تَحْتَ أَيْدِيهِمْ مِنْ مَمَالِكِهِمْ، بَلْ بِطَرِيقِ الْمُلْكِ الْكَامِلِ، وَالسُّلْطَانِ الْقَاهِرِ إِلَهُ النَّاسِ هُوَ أَيْضًا عَطْفُ بَيَانِ كَالَّذِي قَبْلَهُ لِبَيَانِ أَنَّ رُبُوبِيَّتَهُ وَمُلْكُهُ قَدْ انْصَمَّ إِلَيْهِمَا الْمَعْبُودِيَّةُ الْمُؤَسَّسَةُ عَلَى الْأُلُوْهِيَّةِ، الْمُقْتَضِيَّةُ لِلْقُدْرَةِ التَّامَّةِ عَلَى التَّصَرُّفِ الْكُلِّيِّ بِالِاتِّحَادِ وَالْإِعْدَامِ<sup>(١)</sup>.

وأما المستعاذ منه فهو قوله: ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾<sup>(٢)</sup>، والوسواس اسم بمعنى الوسوسة والمراد به الشيطان<sup>(٣)</sup>، والوسواس هو الصوت الخفي (الخناس) الذي يخنس ويتقاعس عند ذكر العبد لربه، قال مجاهد: إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ خَنَّسَ وَانْقَبَضَ، وَإِذَا لَمْ يُذْكَرْ انْبَسَطَ عَلَى الْقَلْبِ<sup>(٤)</sup>.

﴿الَّذِي يُوسَّوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾<sup>(٥)</sup> بالشر والإثم إذا غفلوا عن ذكر الله تعالى. قال مقاتل: إِنَّ الشَّيْطَانَ فِي صُورَةِ خَنْزِيرٍ، يَجْرِي مِنْ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ فِي الْعُرُوقِ، سَلَطَهُ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: الَّذِي يُوسَّوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ. وَفِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [أَنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنْ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ]<sup>(٦)</sup>. وَهَذَا يُصَحِّحُ مَا قَالَهُ مُقَاتِلٌ<sup>(٧)</sup>.

قوله: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾<sup>(٨)</sup> وأيا كان هذا الوسواس من الجن والشياطين، أم من الناس الآدميين، فالاستعاذة برب الناس في المستعاذ به باعتبار أنه سبحانه وتعالى هو المهيمن عليهم، كما أن الناس في المستعاذ منه أيضا باعتبار أنهم يوسوسون ويوحون بالشر، فشياطين

(١) تفسير الشوكاني (٦٤٢/٥).

(٢) سورة الناس، الآية: ٤.

(٣) تفسير ابن كثير (٦٤٥/٢).

(٤) تفسير الشوكاني (٦٤٣/٥).

(٥) سورة الناس، الآية: ٥.

(٦) جزء من حديث أخرجه البخاري في صحيحه، أبواب الاعتكاف، باب بَابُ هَلْ يَلْزَمُ الْمُتَكَبِّرُ عَنْ نَفْسِهِ (٦٥/٣) برقم ٢٠٣٩.

(٧) تفسير القرطبي (٢٦٣/٢٠).

(٨) سورة الناس، الآية: ٦.

الإنس كشياطين الجن كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غَرُورًا﴾<sup>(١)</sup>، كما أن المستعبد نفسه من الناس الذي يخشى وصول الوسوسة إليه من الجنة والناس، فكأنه يقول: أعوذ برب الناس الذي أنا واحد منهم داخل تحت هيمنة ربوبيته، ومالكيته، وألوهيته من شر الشيطان المعروف بعداوته للناس، وأن الشيطان للإنسان عدو مبین، ولهذا كله كانت إضافة الرب إلى خصوص "الناس" مع أنه رب جميع العوالم كما قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾<sup>(٢)</sup> يقول ابن عاشور رحمه الله: وعرف (رب) بإضافته إلى الناس دون غيرهم من الربوبين لأن الاستعاذة من شر يلقى الشيطان في قلوب الناس فيضلون ويضلون، فالشر المستعاذ منه مصبه إلى الناس، فناسب أن يستحضر المستعاذ إليه بعنوان أنه رب من يلقون الشر ومن يلقى إليهم ليصرف هؤلاء ويدفع عن الآخرين كما يقال لمولى العبد: يا مولى فلان كف عني عبدك<sup>(٢)</sup>.

هذا... والسورة الكريمة بفاصلتها التي تنتهي بحرف السين المهموس، وكثرة تكرار هذا الحرف فيها، فكانت بجرسها الصوتي المهموس كأنها تحكي صورة الوسوسة المستعاذ منها، والهمس في الصوت قدر مشترك بين السين وبين الوسوسة نفسها، كما أن لفظ الوسوسة نفسه من الألفاظ التي تتشاكل في نطقها وجرسها الصوتي مع المعنى الذي تدل عليه. وهو الهمس والصوت الخفي.

والله أعلم بأسرار كتابه.

(١) سورة الأنعام، من الآية: ١١٢.

(٢) التحرير والتنوير (٣٠ / ٦٣٢).



## الخاتمة

من خلال دراستنا في هذا البحث الذي هو بعنوان (( براعة الاستهلال فيما افتتح من سور القرآن بالأمر )) يتبين لنا ما يلي:

١- إن الأنواع والأساليب الكلامية التي جاءت عليها فواتح سور القرآن الكريم إنما هي آية في الروعة وحسن المطلع وبراعة الاستهلال وجمع المعاني الكثيرة في الألفاظ القليلة.

٢- إن عظمة هذه الفواتح مستمدة من عظمة المخبر بها وهو الله تبارك وتعالى، ثم من عظمة ما تخبر عنه وتتضمنه من المعاني.

٣- إن صيغة الأمر وأسلوبه من الصيغ والأساليب الإنشائية، وقد جاءت في افتتاح ست سور من سور القرآن الكريم هي سورة: الجن، والعلق، والكافرون، والإخلاص، والفلق، والناس.

٤- من الملاحظ بصفة عامة أن المأمور بشيء يُطلب منه تنفيذ هذا الأمر بصرف النظر عن صيغة الأمر نفسها، فلما أمر الله رسوله ﷺ بأن يقول: ((أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن)) ، أو يقول: (( يا أيها الكافرون ))، أو يقول: (( هو الله أحد ))، أو يقول: (( أعوذ برب الفلق ))، أو يقول: (( أعوذ برب الناس )) كان الأصل - في غير القرآن - أن يكتفي الرسول ﷺ بأن ينطق بالكلام المأمور به هكذا بدون فعل الأمر (( قل )) لكننا وجدنا فعل الأمر (( قل )) المذكور محافظاً عليه مع المأمور به، وذلك لأن المقام هنا ليس مقام تكليف لسيدنا رسول الله ﷺ، يفعل كذا فحسب، ولكن المقام مقام قرآن يتلى ويترنن عليه ثم يقوم بتبليغه للناس كما نزل عليه دون زيادة أو نقصان، فالرسول يبلغ للناس ما نزل من عند الله ونطق به جبريل طبقاً للأصل النازل من السماء أمراً ومأموراً به وما على الرسول إلا البلاغ، وكأن الرسول ﷺ يقول هكذا أبلغكم ما أوحى إلي، وهكذا أبلغكم ما أنزل علي، فليس لي أن أزيد فيه أو أنقص فأنا أبلغه لكم كما أمرني ربي.

### فهرس المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم.

ثانياً: كتب التفسير وعلوم القرآن:

- ١- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الأندلسي (ت ٥٤٢هـ) تحقيق عبدالسلام عبدالشافي/ الناشر/ دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.
- ٢- تفسير البحر المحيط - لأبي حيان الأندلسي دار النشر: دار الكتب العلمية - لبنان / بيروت.
- ٣- التحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور، الناشر/ دار سحنون- تونس.
- ٤- فتح القدير للشوكاني، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٤ هـ.
- ٥- الإتيقان في علوم القرآن، لـ جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.
- ٦- تفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين (ت ٣٩٩هـ) تحقيق أبو عبدالله حسين عكاشة- الناشر/ دار الفاروق الحديثة- مصر.
- ٧- الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه لأبي محمد مكي بن أبي طالب حمّوش بن محمد بن مختار القيسي القيرواني ثم الأندلسي القرطبي المالكي (المتوفى: ٤٣٧هـ)، المحقق: مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي - جامعة الشارقة، بإشراف أ.د: الشاهد البوشيخي، الناشر: مجموعة بحوث الكتاب والسنة - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة الشارقة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

٨- معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي، المؤلف: محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (المتوفى: ٥١٠هـ)، المحقق: عبد الرزاق المهدي، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ.

٩- جامع البيان في تأويل القرآن، المؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)، المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة  
الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.

١١- تفسير الفخر الرازي، دار إحياء التراث العربي - بيروت الطبعة: الثالثة - ١٤٢٠ هـ.

١٢- تفسير القرطبي، دار الكتب المصرية - القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م.

١٣- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٨ هـ.

١٤- تفسير آلوسي، الناشر/ دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ.  
ثالثا: كتب الحديث الشريف:

١- صحيح البخاري للإمام لمحمد بن إسماعيل البخاري، المتوفى: ٢٥٦ هـ، الناشر: دار الشعب - القاهرة.

٢- صحيح مسلم للإمام مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري المتوفى: ٢٦١ هـ، المحقق: مجموعة من المحققين، الناشر: دار الجيل - بيروت.

رابعا: كتب اللغة والمعاجم:

١- الإيضاح للخطيب القزويني، تحقيق جماعة من الأزهر الشريف القاهرة.

- ٢- تاج العروس من جواهر القاموس، المؤلف: محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، أبو الفيض، الملقب بمرتضى، الزبيدي (المتوفى: ١٢٠٥هـ)، المحقق: مجموعة من المحققين، الناشر: دار الهداية.
- ٣- قانون البلاغة للبغدادي.
- ٤- معجم متن اللغة، المؤلف: أحمد رضا (عضو المجمع العلمي العربي بدمشق)، الناشر: دار مكتبة الحياة - بيروت.
- ٥- لسان العرب لابن منظور/ دار الجيل - بيروت.
- ٦- أنواع الربيع في أنواع البديع، لعلي المدني / تحقيق شاکر هاني/ النجف الأشرف ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م.
- ٧- خزنة الأدب وغاية الإرب لابن حجة الحموي/ تحقيق عصام شقيوط، ط- دار الهلال- بيروت.
- ٨- الوافي في العروض والقوافي للخطيب التبريزي/ تحقيق د/ فخرالدين قبادة، عمر يحيى، ط- الثانية ١٣٩٥هـ، ١٩٧٥م.
- ٩- البيان والتبيين للجاحظ / تحقيق عبدالسلام هارون- القاهرة ١٣٦٧هـ، ١٩٤٨م.
- ١٠- تحرير التعبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن لابن أبي الإصبع المتوفى سنة ٦٥٤هـ.
- ١١- البلاغة الواضحة لـ علي الجارم، ومصطفى أمين، مكتبة الرياض الحديثة.